وما سواها (330)

الأمة ومعضلة العماء!!

د. صادق السامرائي- الطب النفساني، العراق / أمريكا

المقصود بالعمى ليس فقدان النظر , وإنما غياب البصر , فكم من فاقد لناظريه من المبصرين المنورين , ومنهم أبو العلاء المعري , بشار بن برد , طه حسين , وغيرهم من أبناء الأمة والدنيا

في واقعنا الذي تدحرجت في أوعيته الأجيال , يسود العماء والتوهم بالرؤية والبصر , وما هي إلا مسيرات خسرانية في متاهات تزدحم بالتداعيات , وما جرى رقصات على هوامش المآسي والويلات

لو أحصينا عدد الأحزاب التي تأسست في ربوع دول الأمة في القرن العشرين وبعده لتبين أنها عدة عشرات , وما قدمت مثلا يقتدى به لبناء الحياة الحرة الكريمة

الأحزاب القومية تحلت بإندفاعية هوجاء لدحض شعاراتها ونظرياتها ومنطلقاتها فأجهزت على ذاتها وموضوعها , وإندثرت في طيات النسيان والبهتان

أما الأحزاب الدينية فلديها طاقات هائلة للتوالد والتواصل والتشظي والإنشطار , خصوصا عندما تتوفر الحواضن السخية

المقصود بالعمى ليس فقدان النظر , وإنما غياب البصر , فكم من فاقد لناظريه من المبصرين المنورين , ومنهم أبو العلاء المعري , بشار بن برد , طه حسين , وغيرهم من أبناء الأمة والدنيا.

وفي واقعنا الذي تدحرجت في أوعيته الأجيال , يسود العماء والتوهم بالرؤية والبصر , وما هي إلا مسيرات خسرانية في متاهات تزدحم بالتداعيات , وما جرى رقصات على هوامش المآسي والويلات.

فعلى مدى قرون وبصائرنا معطلة , وعقولنا منومة , وحواسنا مغفلة , وما فينا يدور في ناعور الهوان والذبول , والإستكانة للأقوال , ففقدت الأجيال النسبة العظمى من بصيرتها , وتصنمت ألبابها , وتجمدت نواهيها , وفقدت حَجاها , وبوصلة مناها.

وهذه بعض جوانب العماء الفاعلة فينا بعنفوان وشراسة , والأجيال تستكين لما لا ينفع ولا يعين!!

أولا: أحزابنا العمياء!!

لو أحصينا عدد الأحزاب التي تأسست في ربوع دول الأمة في القرن العشرين وبعده لتبين أنها عدة عشرات , وما قدمت مثلا يقتدى به لبناء الحياة الحرة الكريمة , وتتنصر على جميعها الأحزاب الدينية , التي ستتواصل بقوة في القرن الحادي والعشرين , لأن قدراتها التدميرية لا تضاهى , فهي أشد خطرا على الأمة من الأحزاب الآخرى بآلاف المرات.

الأحزاب القومية تحلت بإندفاعية هوجاء لدحض شعاراتها ونظرياتها ومنطلقاتها فأجهزت على ذاتها وموضوعها , وإندثرت في طيات النسيان والبهتان , أما الأحزاب الدينية فلديها طاقات هائلة للتوالد والتواصل والتشظي والإنشطار , خصوصا عندما تتوفر الحواضن السخية المستثمرة فيها , لأنها تؤدي أدوارها بتدميرية عالية , والأمثلة عليها متعددة وموثقة خصوصا في العقدين الأولين من القرن الحادي والعشرين , فالأحزاب الدينية ذات عقائد مشحونة بالأضاليل , ومتوجة بالغيبيات التي بموجبها تستعبد الملايين. وتأخذهم إلى سوء المصير بإسم الدين.

وتزرع في عقولهم الأوهام التي تجعلهم يرضون بالذل والهوان , والتحول إلى أرقام على أمل الفوز بجنات النعيم الموعودة.

هذه الأحزاب في ذروة نشاطاتها وإمعانها في عمائها العقائدي , الذي يغذيها بالتطرف والغلو والعدوانية الماحقة , المسوغة بفتاوى تجارها المؤدينين الذين يحللون الحرام ويحرمون الحلال , فهم يمثلون رؤاهم , ولا بد من السمع والطاعة والتقليد والإذعان المطلق لإرادات القِوى الأمارة بالسوء المقدسة النوايا والرغبات.

ولهذا فالخطايا تناثرت , والمآثم طاشت , وكل من عليها عبد مطيع لشيطان رجيم يدّعي بها أنه يمثل إرادة الرحمان الرحيم!!

ثانيا: العمى العقائدي!!

إضطراب إدراكي وخيم يتسبب بتداعيات خطيرة , تصيب الأفراد والمجتمعات والأمم , وهو نوع من الوهم الذي يتسيّد ويسوّغ السلوكيات المتصلة به.

ويصيب الأحزاب والمجموعات والفئات والحركات العقائدية , ويؤدي إلى موتها ودمارها , فالحزب الشيوعي الروسي قضى عليه العمى العقائدي , وكذلك أحزاب أخرى , لكن الحزب الشيوعي الصيني نجا , لأنه مال للواقعية أكثر منه إلى العقائدية , فكانت خطواته وقراراته مبنية على دراسات وأبحاث وإستنتاجات عملية واضحة.

والعمى العقائدي يتأكد في الأحزاب والفئات المؤدينة ويجعلها أخطر الحركات , ويدفعها لإرتكاب أبشع الجرائم والآثام لأنها عمياء , وتحسب فعلها الأفضل والمعبر الأصدق عن عقائدها مهما كان نوعها.

فالأحزاب المؤدينة والعقائدية لا ترى جرائمها سلوكا خاطئا , فعقائدها تبررها , ولهذا تأتي بما يتنافى مع أبسط القيم والمعايير والمبادئ , التي تنطق بها وتنادي بإتّباعها , فتقوم بأعمال وحشية لا مثيل لها , لأن فيها التعبير الأمثل عن عقيدتها.

فلا يمكن مواجهة الأعمى عقائديا بما يفعله , لأنه يحسبه واجبا وفرضا , فتجدنا أمام سلوكيات شنيعة حمقاء للأحزاب والحركات.

فهي صاحبة الحق الأوحد والحقيقة المطلقة , وغيرها على خطأ وهو الآثم والمجرم , وهي التي تقيم العدل وتصنع الحياة الحرة الكريمة الصالحة , وتنفذ أمر ربها بخلقه الفاسدين , والآخرون الذين يعارضونها يريدون حياة ذات خطايا ومَظالم.

وهو منطق جنكيز خان وهولاكو , والقِوى التي فتكت بالبشرية على مر العصور.

فجرائم الإبادة الجماعية لا تُعتبر جرائم في نظرها , والإعتداء على حقوق الآخرين , تبرره بما عندها من هذيانات وأوهام.

وهذا ينطبق على الدول العقائدية , التي لا ترى أي سوءٍ فيما تقترفه في غير بلادها , بل تعبيرا صحيحا عن عقيدتها , فلا يمكن أن تواجهها بما فعلت , لأنها تبرره بقوة بخطابات وتصريحات وفتاوى عقائدية صرفة , ولهذا فأن الذي يعترض على سلوكها يُعتبَر عدوا لها.

ووفقا لمعطيات التأريخ فأن العمى العقائدي يُردي أصحابه , ويأخذهم إلى نهايات وخيمة , لأنهم يحاربون أعداءً وهميين ويهملون الواقع , كما حصل للأنظمة العقائدية , التي تهاوت على عروشها في لحظة حامية من الزمن.

فهل من واقعية بدلا من العقائدية؟!!

ثالثا: العمى..نعم!!

هذه المقالة ليست رأيا أو وجهة نظر , وإنما إستنتاج متواضع مبني على الملاحظة والمقايسة والتقدير , وبمنظار الخبرة النفسية والسلوكية , وهي ليست تهجما بل توضيحا وتعزيزا لقيمة العمائم ودورها في

المستثمرة فيها

ثانيا: العمى العقائدي!! إضطراب إدراكي وخيم يتسبب بتداعيات خطيرة , تصيب الأفراد والمجتمعات والأمم , وهو نوع من الوهم الذي يتسيّد ويسوّغ السلوكيات المتصلة به

الحزب الشيوعي الروسي قضى عليه العمى العقائدي , وكذلك أحزاب أخرى , لكن الحزب الشيوعي الصيني نجا , لأنه مال للواقعية أكثر منه إلى العقائدية

الأحزاب المؤدينة والعقائدية لا ترى جرائمها سلوكا خاطئا , فعقائدها تبررها , ولهذا تأتي بما يتنافى مع أبسط القيم والمعايير والمبادئ , التي تنطق بها وتنادي بإتّباعها

لا يمكن مواجهة الأعمى عقائديا بما يفعله , لأنه يحسبه واجبا وفرضا , فتجدنا أمام سلوكيات شنيعة حمقاء للأحزاب والحركات

وفقا لمعطيات التأريخ فأن العمى العقائدي يُردي أصحابه , ويأخذهم إلى نهايات وخيمة , لأنهم يحاربون أعداءً وهميين ويهملون الواقع , كما حصل للأنظمة العقائدية , التي تهاوت على عروشها في لحظة حامية من الزمن

الخلاصة أن لا عمامة مهما إدّعت يمكنها أن تحيط علما بالمعارف الدينية المتصلة بالإسلام , لجسامة التراكم الإبداعي وعظيم التراث الذي لا يمكن لفرد أن يلم به لو عاش ألف سنة

القول بأن هذه العمامة أو تلك لديها القدرة على إستيعاب وهضم العلوم المتصلة بالإسلام

البناء الأخلاقي والسلوكي والمعرفي.

والخلاصة أن لا عمامة مهما إدّعت يمكنها أن تحيط علما بالمعارف الدينية المتصلة بالإسلام , لجسامة التراكم الإبداعي وعظيم التراث الذي لا يمكن لفرد أن يلم به لو عاش ألف سنة , ولهذا فالقول بأن هذه العمامة أو تلك لديها القدرة على إستيعاب وهضم العلوم المتصلة بالإسلام نوع من التضليل والخداع والتهويل.

"وقل لمن يدّعي في العلم فلسفةً...حَفِظتَ شيئا وغابتْ عنكَ أشياءُ"

والدليل لو أنك قمت بزيارة لمكتبة للتراث الذي أنتجه العقل المسلم عبر العصور , لوقفت مذهولا وعاجزا عن إدراك ما بين أغلفة الكتب الموسوعية , التي بذل مؤلفوها أعمارهم في البحث والإستقصاء والتدوين والترصين.

والعلوم الدينية شأنها كالعلوم الأخرى قد تطورت , فمثلما لا يمكن لطبيب أن يلم بالعلوم الطبية كافة , رغم أن عمرها قرن أو يزيد بقليل , فأن العلوم الدينية التي عمرها عدة قرون لا يمكن للشخص أن يحيط بها علما.

وبما أن العلوم الطبية قد أصبحت تخصصات وتفرعات مثل غيرها من العلوم , فأن العلوم الدينية تخصصات وتفرعات ولكل تخصص مَن عمل فيه وثابر , والمختص بفرع لا علم له بالفرع الآخر بمعنى أنه لا يمكنه الكلام بلغة العارفين , مثلما الطبيب المختص بالجهاز الهضمي لا يمكنه الكلام عن الجهاز البولي أو التنفسي بعلمية وافية.

والعلوم الدينية واسعة وذات ثراء وفير ومصادرها مئات الرفوف من الكتب والموسوعات , ومن غير المعقول أن يدّعي شخص بأنه العارف بها والمستوعب لها , فترى أشخاصا في الثلاثينيات ويدّعون المعرفة والتفقه وما هم بعارفين لقطرة من العلوم الدينية , لكنهم وضعوا العمامة وأطلقوا اللحية ووصفوا أنفسهم كما يشاؤون , فالعمامة توضع على الرؤوس بلا ضوابط ومعايير.

والأنكى من ذلك يأخذون بالإفتاء , ويبدون الرأي في مسائل متنوعة , وكأن الإفتاء حالة سهلة وممكنة لأي عمامة , بينما يجب أن تكون كالبحث العلمي المستفيض الذي ينتهي بإستنتاج مناسب ومعقول , ولا يمكن لشخص أن يفتي وإنما من الواجب أن يكون هناك مجلس إستشاري فيه من كافة التخصصات الدينية للنظر في المسائل , والبحث فيها ودراستها وتقيمها وإستخلاص الأجوبة الموضوعية المتفقة مع زمانها ومكانها.

والعجيب في الأمر أن الإسلام فيه ما لايُحصى من المرجعيات الفردية وهذا خطأ مروع , فالمرجعية لا يمكنها أن تكون فردية في عصرنا , ولا بد من جمهرة متخصصين بالعلوم الدينية القادرين على تقييم الموضوعات , وتقديم الدراسات والتقديرات ذات الصوابية العالية.

فزمن المرجع الفرد قد ولى منذ مئات السنين , والمراجع الأفراد كان لهم دور في زمن قلة المعلومات وقدرة الشخص الفرد على الإحاطة بمعظمها , أما في زمن الفيض المعلوماتي فأن القول بفردية المرجعية نوع من الهراء والهذيان الذي لا يقبله العقل ولا تقره البديهيات.

وهكذا فأن العمائم عمياء وبهذا العماء تسببت بتداعيات وويلات وخسائر فادحة على جميع المستويات , لأنها تتوهم بأن ما تراه هو الصحيح وتجتهد في تبريره وتسويغه , رغم أنه نوع من العدوان على الإنسان والدين لكنها لا تراه , فمعظمها لا يدري ولا يدري أنه لا يدري.

نوع من التضليل والخداع والتهويل.

العلوم الدينية شأنها كالعلوم الأخرى قد تطورت , فمثلما لا يمكن لطبيب أن يلم بالعلوم الطبية كافة , رغم أن عمرها قرن أو يزيد بقليل , فأن العلوم الدينية التي عمرها عدة قرون لا يمكن للشخص أن يحيط بها علما

بما أن العلوم الطبية قد أصبحت تخصصات وتفرعات مثل غيرها من العلوم , فأن العلوم الدينية تخصصات وتفرعات ولكل تخصص مَن عمل فيه وثابر

العلوم الدينية واسعة وذات ثراء وفير ومصادرها مئات الرفوف من الكتب والموسوعات , ومن غير المعقول أن يدّعي شخص بأنه العارف بها والمستوعب لها , فترى أشخاصا في الثلاثينيات ويدّعون المعرفة والتفقه وما هم بعارفين لقطرة من العلوم الدينية

لا يمكن لشخص أن يفتي وإنما من الواجب أن يكون هناك مجلس إستشاري فيه من كافة التخصصات الدينية للنظر في المسائل , والبحث فيها ودراستها وتقيمها وإستخلاص الأجوبة الموضوعية المتفقة مع زمانها ومكانها

العجيب في الأمر أن الإسلام فيه ما لايُحصى من المرجعيات الفردية وهذا خطأ مروع , فالمرجعية لا يمكنها أن تكون فردية في عصرنا , ولا بد من جمهرة متخصصين بالعلوم الدينية القادرين على تقييم الموضوعات , وتقديم الدراسات والتقديرات ذات الصوابية العالية

فهل من عمائم مبصرة وعلى البناء الأخلاقي مقتدرة؟!!

رابعا: هل نحن مخلوقات عمياء؟!!

هذا الصباح دخلت بوابة المستشفى كعادتي كل صباح , وعند البوابة الأوتوماتيكية وجدتني متوقفا لأنها لا تعمل , وكانت موظفة الأمن قرب المكان فعندما وجدتني متحيرا , سألتني: ماذا يقول السهم أمامك والإعلان الذي بجنبه؟!

قلت: إتجه يمينا!!

قالت: إذن لماذا لم تتجه يميناً؟!!

تحيرت وقلت مازحا: لأن دماغي مبرمج على أن أمضي إلى الأمام!!

ضحكنا لكني إنتبهت إلى حقيقة أن العقل البشري يتبرمج بالتكرار ومن الصعب تغيير برمجته!!

ومن المصادفات يوم البارحة كنت أقدم حالة وقد أعددتها على أن تكون شرائح تعرض على الشاشة , وفي اللحظة الأخيرة تم تغيير مكان المناقشة فوجدتني في موقف تغيير التقديم ليكون بلا شرائح معروضة , فقلت للحاضرين مازحا إمنحوني بعض الوقت لكي أغير برنامج دماغي إلى الشكل الحالي الذي يجب أن يكون عليه التقديم.

ومن الملاحظات التي كنت أطرحها في العديد من الجلسات المتعلقة بإرشاد المريض , أن البشر لا يقرأ ما يُكتب على الجدران في العيادات أو في الدوائر الأخرى , إن البشر لا يرى ما حوله بوضوح وإنما يعيش وفقا لما فيه ويرى ما يريد أن يراه ويرغب فيه.

وعودة إلى السهم الذي يشير إلى اليمين , وبقربه بوابة مفتوحة , فبدلا من السير إلى الأمام كالعادة كل يوم عليك أن تنعطف قليلا إلى اليمين لتدخل المبنى , وبسبب هذا التغيير وجدت المسؤولة الأمنية في مضطرب جعلها تغادر مكانها وتقف أمام البوابة تشير للقادمين بالإنعطاف يمينا.

قالت: أنهم لا يرون ولا يقرؤن , السهم أمامهم والباب مفتوحة لكنهم يتسمرون أمام البوابة الأوتوماتيكية التي أصابها عطل هذا الصباح.

هذه أمثلة سلوكية لوقائع يومية تشير إلى أن البشر مخلوقات روتينية وإدمانية غير قادرة على تطويع سلوكها بسهولة , مما يتسبب بتداعيات خطيرة وتفاعلات ذات نتائج أليمة.

فالبشر المحشو بفكرة ما أو برؤية معينة تجده أسيرا لها ومصفودا بآلياتها , ولا يمكنه أن يرى غير ما تمليه عليه من الرؤى والتصورات , ومهما قدمت له من خيارات فأنه يكون عاجزا عن رؤيتها أو تبصرها , ويمضي في سكة ما فيه , ولهذا فأن القول بالحوار مع البشر المرهون بما فيه , يشبه سلوك مناطحة الصخر , لأن ما يحتويه قد إستجمع طاقات إنفعالية وعاطفية كثيفة وصلدة لا يمكن إختراقها وزعزعة ما تكنزه من الأفكار القابضة على مصير البشر المبتلى بها.

وتلك عاهة سلوكية ومعضلة تفاعلية قاصمة تساهم بمشاريع الويلات والتداعيات المروعة فوق التراب!!

فهل لدينا القدرة على الخروج من قوقعة ما فينا وإستعمال عقولنا بدلا من تعطيلها في معتقلات التكرار المبيد؟!!

زمن المرجع الفرد قد ولى منذ مئات السنين , والمراجع الأفراد كان لهم دور في زمن قلة المعلومات وقدرة الشخص الفرد على الإحاطة بمعظمها , أما في زمن الفيض المعلوماتي فأن القول بفردية المرجعية نوع من الهراء والهذيان الذي لا يقبله العقل ولا تقره البديهيات.

إن البشر لا يرى ما حوله بوضوح وإنما يعيش وفقا لما فيه ويرى ما يريد أن يراه ويرغب فيه.

البشر المحشو بفكرة ما أو برؤية معينة تجده أسيرا لها ومصفودا بآلياتها , ولا يمكنه أن يرى غير ما تمليه عليه من الرؤى والتصورات , ومهما قدمت له من خيارات فأنه يكون عاجزا عن رؤيتها أو تبصرها , ويمضي في سكة ما فيه

هل لدينا القدرة على الخروج من قوقعة ما فينا وإستعمال عقولنا بدلا من تعطيلها في معتقلات التكرار المبيد؟!!

إذا قيل أن ثوراتنا عمياء , سيغضب البعض , بينما الواقع القائم والفاعل فينا يشير إلى أن العمى قائدنا , خصوصا فيما نسميه سياسة

أحزابنا بلا فكر ولا برامج سياسية , وتشترك بطروحات إنشائية غير ناضجة , خالية من الفكر الصحيح القادر على بناء الحياة

هذا ربما ينطبق على ما أسميناه بثورات الربيع العربي , فهي إندفاعات جماهيرية متوثبة للتغيير بدون فكر ومناهج عملية , ولا برامج لبناء الحالة المنشودة

توهمت بأن الديمقراطية المفتاح

خامسا: العماء الثوري!!

إذا قيل أن ثوراتنا عمياء , سيغضب البعض , بينما الواقع القائم والفاعل فينا يشير إلى أن العماء قائدنا , خصوصا فيما نسميه سياسة , فأحزابنا بلا فكر ولا برامج سياسية , وتشترك بطروحات إنشائية غير ناضجة , خالية من الفكر الصحيح القادر على بناء الحياة.

وهذا ربما ينطبق على ما أسميناه بثورات الربيع العربي , فهي إندفاعات جماهيرية متوثبة للتغيير بدون فكر ومناهج عملية , ولا برامج لبناء الحالة المنشودة , فغيرت ووجدت نفسها إزاء نفسها بلا رؤية , ولا خارطة طريق تساهم في بناء الحلم المنشود.

وتوهمت بأن الديمقراطية المفتاح السحري الذي سيبدل أحوالها إلى الأحسن , وهي تجهل معنى الديمقراطية وشروطها وعناصرها , ولهذا إنتهت إلى فراغ , ففقزت الأحزاب المؤدينة العمياء الغارقة في عقائدها المغالية ودوغماتيتها البالية , فإنتهت إلى أسوأ مآل , ووجدت نفسها مذعنة لإرادة الكرسي ومتوهمة بما تؤمن به , فأهملت الوطن حتى تقيأها.

ولا يزال العماء الفكري سيد الموقف , فلا يوجد مفكرين متوافقين مع إرادة الثورات , وبغياب الرؤية الفكرية الراجحة , ضاعت بوصلة السلوك الثوري , وعشعشت إرادات الجماعات المنضوية تحت ألوية عقائدية ظلماوية , وتحقق تسليحها من قبل القوى الطامعة بالهيمنة على الوجود العربي في كل مكان , حتى بدت الثورات وكأنها آليات جديدة لإستعمار معقد وإستعباد مؤيَّد بإرادات المغرضين.

فإلى أين تسير الثورات العربية وهي بلا بوصلة فكرية , ولا خارطة تنويرية , وقد نهضت أجيال في هذا الوسط المشوش الخالي من الأنوار العقلية الساطعة المؤثرة.

إن الثورات الخالية من الدليل الفكري , تتحول إلى عثرات ومصادر للتعويق وتطويق النور بالنار.

فهل من فكر ثوري رشيد , يعيد للثورات قدرات خطوها وتوثبها إلى مستقبل سعيد؟!!

وختاما , فالأعمى بحاجة لدليل , ولكي يتوفر ذلك الدليل لابد من شخص يرى , ولتكون الأمة لابد من الذين يبصرون , فهم أدلاء مسيرتها , وقادة إنطلاقها نحو جوهر ذاتها ومرابع موضوعها , وإنها أمة "إقرأ" وبها تكون!!

السحري الذي سيبدل أحوالها إلى الأحسن , وهي تجهل معنى الديمقراطية وشروطها وعناصرها , ولهذا إنتهت إلى فراغ

لا يزال العماء الفكري سيد الموقف , فلا يوجد مفكرين متوافقين مع إرادة الثورات , وبغياب الرؤية الفكرية الراجحة , ضاعت بوصلة السلوك الثوري

إلى أين تسير الثورات العربية وهي بلا بوصلة فكرية , ولا خارطة تنويرية , وقد نهضت أجيال في هذا الوسط المشوش الخالي من الأنوار العقلية الساطعة المؤثرة

إن الثورات الخالية من الدليل الفكري , تتحول إلى عثرات ومصادر للتعويق وتطويق النور بالنار.

فهل من فكر ثوري رشيد , يعيد للثورات قدرات خطوها وتوثبها إلى مستقبل سعيد؟!!

إرتباط كامل النص:
http://www.arabpsynet.com/Samarrai/DocSamarraiWaMaSawahaa330-300522.pdf

**** **** ****

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقيا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي
http://www.arabpsynet.com/

المتجر الالكتروني
http://www.arabpsyfound.com

الكتاب السنوي 2022 لـ " شبكة العلوم النفسية العربية " (الاصدار الحادي عشر)

الشبكة تدخل عامها 22 من التأسيس و 19 على الويب

22 عاما من الكدح... 19 عاما من الإنجازات
http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf